



<http://virtuelcampus.univ-msila.dz/leltp/?=212>

ص131-150

المجلد: 01 العدد: 02 (2021)

السياق وأهميته في تحقيق تماسك النص

Context and its importance in achieving the coherence

د. عمر مختاري

ج. بائنة 01- الحاج لخضر (الجزائر)

Mokhtari.amar28@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
تتناول هذه المداخلة موضوع السياق وأهميته في تحقيق تماسك النص. وتهدف من خلال هذا الموضوع إلى محاولة الكشف عن أهمية السياق اللغوي ودوره في تحقيق تماسك النص الأدبي مع الإشارة إلى الوقوف عند مفهوم السياق اللغوي وأنواعه، سواء كان ذلك من الناحية النظرية أو التطبيقية عند ممارسة هذه التقنية اللغوية التي تنشأ في البيئة اللغوية. كما نحاول تسليط الضوء على المعنى المركزي الذي له السلطة الوجودية في تشكيل السياق اللغوي وما يحتويه من قرائن لغوية متجمعة في المحيط اللساني. وإن دراسة الربط في البنية النصية مهم؛ لأن تأكيده يثبت صفة النصية ووحدة البناء وسيكون الطريق مفتوحا بالنسبة إلى الدارس لكي يجاور نصه ويؤوله انطلاقا من معرفته الخلفية ورؤيته للعالم.	تاريخ الإرسال: 2021/06/08 تاريخ القبول: 2021/07/07 <u>الكلمات المفتاحية:</u> ✓ السياق ✓ اللغوي ✓ تماسك ✓ النص
Abstract:	Article info
<i>This study deals with the topic of context and its importance in achieving the coherence of the text.</i> <i>We aim through this study to reveal the importance of the linguistic context and its role in achieving the cohesion of</i>	Received: 08/06/2021 Accepted: 07/07/2021

the literary text with reference to the concept of the linguistic context and its types, whether theoretically or in practice when practicing this linguistic technique that arises in the linguistic environment. We also try to shed light on the central meaning that has the existential authority in shaping the linguistic context and what it contains of linguistic clues gathered in the linguistic environment. The study of linkage in the textual structure is important; Because his confirmation proves the character of textuality and the unity of construction, and the way will be open for the student to dialogue and interpret his text based on his background knowledge and his view of the world.

Keywords:

- ✓ Context
- ✓ Linguistic
- ✓ Coherence
- ✓ Text

مقدّمة: يعتبر السِّيَاق من القرائن المعنوية الهامة في دراسة الدلالة واكتشاف ما تحمله الكلمة من معنى من خلال موضعها في التركيب الأصغر الذي هو الجملة أو الأكبر الذي هو النص، فهو الذي يجعل للفظة معنى متى تم استعمالها في اللغة والطريقة التي تستعمل بها أو الدور الذي تؤديه. وإن دراسة الربط في البنية النصية مهم لأن تأكيده يثبت صفة النصية ووحدة البناء، وسيكون الطريق مفتوحًا بالنسبة إلى الدارس لكي يحاور نصه، ويؤوله انطلاقًا من معرفته الخلفية ورؤيته للعالم. فالنص فضاء يتحرك وفق معلمين متقاطعين معلم أفقي، ومعلم عمودي، ومنها تتشكل إحداثيات النص الذي يتميز بدوره مرجعية تنطلق منها إشارات الإحالة.

والتماسك النصي مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسياقات المختلفة سواء الداخلية أو الخارجية، تتظافر مع غيرها من أدوات التماسك لتحقيق النصية، فغياب حدود واضحة لمفهوم السياق يظل مصدرًا للخلط الذي تفسى في استعمالات علماء اللسان بين السياق العام، فغالبًا ما يستعملون مصطلح السياق للدلالة على مجموع الظروف التي تصاحب ظهور الملفوظ، وبهذا لا يغدوا السياق مكونًا من علامات ولكنه يشمل مختلف العناصر التي تسهم في فعل التلفظ.

ولذا لا بد لكل بحث من ضبط المجال الذي يدور فيه، والمفاهيم العامة التي يعتمد عليها، فيتعين بذلك موقعه من الدراسات والاختصاصات المتنوعة والمتداخلة، بحيث يتمكن المتلقي جراء ذلك من ضبط المفاتيح التي تسمح له في البحث، وهي مفاتيح قائمة على تلك المفاهيم بطبيعة الحال، وهذه ضرورة استيمولوجية معروفة وهو منهجًا عبر كل مضامين البحث، حيث سنحاول حصر ما رأيناه بالموضوع من قريب أو بعيد في مداخلتنا هذه الموسومة ب: السياق وأهميته في تحقيق تماسك النص.

أهمية الدراسة:

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تقوم على رصد ظاهرة التماسك النصي وتحليل عناصرها والكشف عن فوائدها، لما لها من أهمية كبيرة في بناء النص واتساقه وانسجامه، والسياق من أهم الظواهر النصية التي تشكل موضوعات لسانيات النص، فهو أداة معرفية وإجرائية حديثة، يوفر لها قدرًا هامًا من الكفاية العلمية الضرورية في اللسانيات المعاصرة وعلم الدلالة الحديث، فقد حققت نجاحًا معتبرًا في دراسة النصوص على اختلاف أنساقها المعرفية. فالسياق له دور قوي في فهم معاني ألفاظ النصوص وضبط دلالتها المقصودة، فالكلمة إذا وقعت في سياق ما لا تكتسب قيمتها إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق ولما هو لاحق أو لكليهما معًا.

أهداف الدراسة: تسعى دراستنا إلى تحقيق جملة من الأهداف التي هي بمثابة
العمود الفقري لهذه الدراسة وذلك من أجل بيان ما يلي:

- التعرف على السياق في معناه اللغوي والاصطلاحي.
- تحديد أنواع السياق.
- إبراز أهمية السياق في القيام بدور فعال في تحقيق تماسك وانسجام النص.
- إشكالية الدراسة: استنادًا إلى هذا الطرح يكون البحث منطلقًا من الإشكالية التالية:

- ما المقصود بالسياق؟
- وإلى أي حد تظهر فاعليته في قيام النص؟
- وماهي أنواعه؟
- وهل يسهم السياق اللغوي في تحديد المعنى المركزي للنص؟
- وما دور السياق في تحقيق تماسك وانسجام النص؟

منهج الدراسة: لقد تطلب هذا البحث استخدام المنهج الوصفي التحليلي، سعيًا من خلاله الوصول إلى إجابات مقنعة للأسئلة المطروحة والمنبثقة من إشكالية هذا البحث، فهو الجدير بمعالجة هذا النوع من المواضيع، فيرصد لنا الظاهرة رصدًا واقعيًا من خلال المعلومات والبيانات وتحليلها وتفسيرها، وذلك لأن الوصف هو عماد الدراسات الحديثة، ومن بينها "نظرية السياق".

وفي الأخير أنهيت البحث بخاتمة كانت عبارة عن مجموعة من النتائج التي تم التوصل إليها.

وقبل أن نتطرق إلى وظيفة السياق ودوره في تحقيق تماسك النص، وجب علينا بداية أن نتعرف على مفهوم مصطلح السياق، وأنواعه:

1. ماهية السياق:

1.1. التعريف اللغوي: نسعى في هذا القسم من الدراسة إلى الوقوف عند مختلف مظاهر السياق من خلال مجموعة من المعاجم، فقد جاء في لسان العرب في مادة سَوَقَ "يقول السوق: معروف. ساقَ الإبل وغيرها يسوقها سوقا وهو سائق وسواق...وقد انساقت وتساوقت الإبل تساقا تتابعت، وساقَ إليها الصداق والمهر سياقا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل وهي التي تُساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما، وساق فلان من امرأته أي أعطاه مهرها والسياق المهر، قيل للمهر سَوْقُ لأن العرب كانوا إذا تزوجوا ساقُوا الإبل والغنم مهرا، لأنها كانت الغالب على أموالها وضع السَّوق موضع المهر وإن لم يكن إبلا وغنما، وأساقه إبلا: أعطاه أياها يسوقها، وساق بنفسه سياقا نزع بها عند الموت، تقول رأيت فلان يسوق سَوْقًا أي ينزع نزعا عند الموت.

يقال فلان في السياق أي في النزع وللسياق نزع الروح، وأصله سواق فقلبت الواو

ياء بكسرة السين وهما مصدران من ساق يسوق⁽¹⁾.

ووردت عند الزمخشري أيضًا إشارة إلى السياق في مادة (سَوَقَ) يقول: "ومن المجاز ساق إليه خيرا، وساق إليها المهر، وساقَت الريح السحاب، والمختصر يسوق سياقا، وفلان في ساقه العسكر في آخره وهو جمع سائق، كقادة في قائد وهو يسوقه ويقاوده، وتساقوت الإبل: تتابعت وهو يسوق الحديث أحسن السياق. ((وإليك سياقُ الحديث)) وهذا الكلام مسافة إلى كذا وجئتك بالحديث على سُوْقه: على سرده" ⁽²⁾. وإضافة إلى ما دل عليه السياق فإنه يدل على دلالة مجازية، متمثلة في سياق الحديث الذي يعد مجال دراستنا.

2.1. التعريف الاصطلاحي: لم تكن اللسانيات النصية وحدها من اهتم بالسياق بل كان محور اهتمام اللسانيات بصفة عامة، إذ يعنى مصطلح السياق التركيب أو السياق الذي ترد فيه الكلمة، ويسهم في تحديد المعنى المتصور لها، ويتكون مصطلح السياق (context) من مقطعين (text) و (cont)، أي مع النسيج. حيث استعمل المصطلح الأول ليعني الكلمات المصاحبة للمقطوعات الموسيقية، ثم بعد ذلك أصبح يستعمل بمعنى النص، أي تلك المجموعات من الكلمات المترابطة مكتوبة أو مسموعة، إضافة إلى معنى جديد متمثل في ما يحيط بالكلمة المستعملة في النص من ملابسات لغوية وغير لغوية ⁽³⁾.

فالسِّياق لفظ يتكون من سابقة (Con) تعني المشاركة أي وجود أشياء مشتركة تقوم بتوضيح النص، وهي فكرة تتضمن أمورًا أخرى تحيط بالنص كالبنية المحيطة والتي يمكن وصفها بأنها الجسر بين النص والحل ⁽⁴⁾. وفي هذا الصدد يرى رشيد بن مالك أن السياق يكون على ثلاثة مستويات:

أولها: على مستوى الكلام: يشتمل المحيط الألسني للوحدة على مجموعة من العناصر الحاضرة في النص المجاورة أو المبتعدة عن الوحدة المدروسة.

ثانيها: على مستوى اللغة تكون كل وحدة ألسنية بمثابة السياق للوحدات الموجودة في رتبة أدنى ويتموضع سياقها في الوحدة الموجودة في مستوى أعلى. كالقو نيم/ص/ يتمظهر في سياق/صديق/وبدوره يتمظهر في سياق/صديق/في جملة/ أنت صديق/.

ثالثها: المحيط الألسني أو غير الألسني الذي تتحقق فيه الوحدة⁽⁵⁾.

إذن نستخلص من كل ما سبق أن السياق ينقسم إلى قسمين هما: السياق اللغوي والسياق غير اللغوي الذي يعني كل ما يحيل على خارج النص أو ما حوله من مؤثرات بيئية (تاريخية، سياسية، اقتصادية اجتماعية، نفسية...) من الممكن أن تنعكس على النص فيصطبغ ببعض ألوانها لذلك يسعى النقد التقليدي إلى أن يتخذ من السياق معولا مرجعيا يتكى عليه في سبيل الولوج إلى أغوار النص وإضاءة جوانبه الداخلية⁽⁶⁾. ولذا فالنص تتجاذبه علاقتان، داخلية كي يتماسك ومن ثم فهو واقع كذلك بين التأثير والتأثر من قبل البيئة المحيطة، وهذا ما يؤكد لنا العلاقة التلازمية بين النص والسياق باعتباره يُؤثر فيه وبفضله نتمكن من القبض على المعنى النصي.

ولعل هذه الأهمية للعلاقات بين النص والسياق هي التي دفعت هاليداي ورقية حسن إلى جعل عنوان كتاب لهما "اللغة، السياق والنص" الذي أكدا فيه أن الفكرة الأساسية تهدف إلى إجلاء العلاقة بين النص والسياق، هذه العلاقة مؤكدة ((فكل من النص والسياق يمكن تفسيره بالرجوع إلى الآخر))⁽⁷⁾. وهو ما يؤكد عليه جون لا ينز أيضاً، إذ يرى أن كلا منهما متمم للآخر. وتعتبر النصوص مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بوساطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة⁽⁸⁾.

ثانيا- أنواع السياق: إن دراسة معنى أي كلمة من الكلمات يتطلب تحليل السياقات والمواقف التي ترد فيها، وبذلك فإن معنى الكلمة يتحدد تبعاً لتعدد السياقات التي تقع فيها واستعمال الكلمة عند هؤلاء يحكمه أمران:

الأول: السياق اللغوي نفسه (Verbal Contexte): الذي لا ينظر إلى الكلمات كوحدات منعزلة، فالكلمة يتحدد معناها بعلاقاتها مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية⁽⁹⁾.

الثاني: سياق الموقف (**Contexte of Situation**): أو سياق الحال عند "فيرث" وهو نوع من التجريد من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام وسياق الحال يشمل أنواع النشاط اللغوي جميعا كلاما وكتابة، غير أن بلومفيلد السلوكي حد سياق الحال بظواهر يمكن تقريرها في إطار من الأحداث العملية وهو عنده مادي⁽¹⁰⁾، وسياق الموقف يتكون من ثلاثة عناصر هي:

1. شخصية المتكلم والسامع ومن يشهد الكلام ودور المشاهد في المراقبة أو المشاركة.
2. العوامل والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المختلفة بالحدث اللغوي.
3. أثر الحدث اللغوي في المشتركين كالإقناع أو الفرح أو الألم أو الإغراء⁽¹¹⁾.

ويمكن أن نعطي مثالا للتوضيح أكثر بالفعل "أكل" ومعانيه المتعددة من خلال السياقات المختلفة ومن خلال مجتمعين أو بيئتين لغويتين مختلفتين، فنعرض أولا للفعل في المستوى الفصيح الذي يتمثل في السياقات القرآنية التالية:⁽¹²⁾

أ- ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ الفرقان 07، بمعنى التغذية للإنسان.

ب- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يوسف 13، بمعنى الافتراس للحيوان.

ج- ﴿أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ الحجرات 12، بمعنى الغيبة للإنسان.

ومن خلال هذه السياقات اللغوية نتمكن من تحديد المعاني المختلفة للفعل "أكل" كما أشرنا سابقا الذي ورد في سياقات متعددة. وقد ذهب فان ديك Van-Dyke () في مقاله "النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص" إلى تقسيم السياق إلى مستويات وهي كالآتي:

أ- السياق التداولي (النص كفعل كلامي): وفيه لا نكتفي بدراسة الملفوظات اللغوية أو النصوص من حيث بناها فحسب، وإنما أيضًا من حيث وظائفها⁽¹³⁾. بمعنى أن دراسة أي نص لا تكون بهدف معرفة شكله ومحتواه وإنما الهدف منها هو معرفة الوظائف التي ينجزها أيضًا.

فالسياق التداولي يعتمد على تأويل النص باعتباره فعلا للغة، أو متتالية من أفعال اللغة كالوعد والتهديدات والتأكيد... ومهمة التداولية هي أن تعدد الشروط التي ينبغي أن تتوفر في كل فعل لغوي لكي يكون مناسبًا لسياق خاص، وكما يتكون السياق التداولي من كل العوامل النفسية والاجتماعية والتي تحدد بدقة مناسبة أفعال اللسان كالمعرفة أو الرغبات أو الإرادة...⁽¹⁴⁾.

ب- السياق الإدراكي أو المعرفي (فهم النصوص): ويركز فان دايك فيه على ما يسميه فهم النص وهو في نظره يقوم على ما يلي:

- إن مستعمل اللغة سوف يفهم بالدرجة الأولى الكلمات ومجموعة الكلمات والجمل ومن ثم متتاليات الجمل⁽¹⁵⁾. كما أشار فان ديك إلى مجموعة من المعطيات والتي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لكي نصل إلى فهم النص وهي: لكي نتمكن من إقامة هذه الروابط على المستعمل أن يستعين بمعرفته للعالم انطلاقًا من مكتسباته المعرفية المخزنة في الذاكرة⁽¹⁶⁾.

ج- السياق النفسي الاجتماعي (تأثير النصوص): المقصود به المفعول الذي تحدثه النصوص على مستعملي اللغة سواء فرديًا أو جماعيًا، فالأمر لم يعد متعلقًا بالتساؤل عن ماذا يفعل القارئ أو السامع بالنص؟ - وإنما ماهي العوامل الاجتماعية التي تلعب دورا في فهم النص؟ أو ماهي مظاهر فهم النص التي تحتوي على إحياءات اجتماعية؟⁽¹⁷⁾. فالتركيز أصبح منصبا على العوامل المساعدة في فهم النص والتي تحمل صيغة اجتماعية.

د- السياق الاجتماعي (النص في التفاعل): أي الاهتمام بالعلاقات القائمة بين السياق الاجتماعي واستعمال اللغة، كما أن هذه المواقف الاجتماعية التي تنتج فيها النصوص فريدة بحد ذاتها، لكن مع ذلك تتمتع بخصائص ذات طابع أعم فهي مقامات خاضعة لمعايير معينة وتكرر باستمرار.

وهكذا فثمة مقامات ذات طبيعة عامة أو خاصة تأخذ فيها الملفوظات قيمة فعل كلامي، فالنص كفعل كلامي لا يحدده المقام الاجتماعي فقط، وإنما المقام الاجتماعي نفسه تحددته كيفية استعمال اللغة⁽¹⁸⁾. فالمقامات تختلف من نوع إلى آخر وفيها تتحدد قيمة النص، إذ أن كل من النص والمقام الاجتماعي يحدد بعضه بعضا، ويؤثر كل منهما في الآخر.

ويذهب بعض الباحثين إلى اقتراح تقسيم آخر للسياق يشمل كل ما يتصل باستعمال الكلمة من علاقات لغوية وظروف اجتماعية وخصائص وسمات ثقافية، ونفسية وغيرها، وعلى هذا يمكن أن يقسم السياق إلى أربعة أقسام هي:

1. السياق اللغوي: وهو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاورة وكلمات أخرى مما يكسبها معنى خاص محدد، ويشار في هذا الصدد إلى أن السياق اللغوي يوضح كثيرا من العلاقات الدلالية عندما يستخدم مقياسا لبيان الترادف والاشتراك أو العموم أو الخصوص أو الفروق ونحو ذلك⁽¹⁹⁾، ويشمل مكونات أساسية هي:

أ- السياق الصوتي: ويهتم بدراسة الصوت داخل سياقه، إذ يعتبر الفونيم المادة الأساسية في قيم الدلالة باعتباره وسيلة مهمة لتوزيع الأصوات داخل السياق وفق محتواها الوظيفي مثلا: قال- وكال، إذ ليس للصوت درجة قيمة داخل نفسه وإنما مهمته الوظيفية تكمن في تأثيره الدلالي داخل منظومة السياق⁽²⁰⁾.

ب- السياق الصرفي: إن المور فيمات سواء كانت حرة أو مقيدة لا قيمة لها إلا إذا كانت ضمن سياق تركيبى معين، ومثلها حروف المضارعة وسواها، حيث تمارس وظيفتها داخل النص.

ج- السياق النحوي: هو شبكة من العلاقات القواعدية التي تحكم بناء الوحدات اللغوية داخل النص وفيها تقوم كل علاقة بمهمة وظيفية تساعد على بيان الدلالة من خلال القرائن النحوية كالإعراب مثلاً⁽²¹⁾.

د- السياق المعجمي: هو مجموع العلاقات الصوتية التي تتضافر من أجل تخصيص الوحدة اللغوية بيان دلالي معين يمنحها القدرة على التركيب وفق أنظمة اللغة المعينة، هذه الوحدة تشترك في علاقات أفقية مع وحدات أخرى لإنتاج المعنى السياقي العام للتركيب⁽²²⁾ فاجتماع معاني المفردات وعلاقاتها مع بعضها البعض، هو الذي يساعد على إنتاج المعنى العام لأي تركيب.

هـ- السياق الأسلوبى: ويظهر هذا اللون من السياق في النصوص الشعرية والنثرية أكثر منه في اللغة العادية لما يمتلكه من قوة النسيج وقوة التوالد الدلالي، لأنه ملك الفرد ذاته⁽²³⁾.

2. السياق العاطفي: هو الذي يحدد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعية ودلالتها العاطفية⁽²⁴⁾، كما يحدد أيضاً درجات الانفعال حسب القوة والضعف مما يتطلب قرائن بيانية تؤكد عمق أو سطحية هذا اللون من الانفعال، فمثلاً عند التعبير عن أمر فيه غضب وشدة انفعال، فإننا ننتقي الكلمات ذات الشحنة التعبيرية القوية أو المعبرة، إلى درجة أن المتكلم نفسه قد لا يقصد استعمال هذه الكلمات: مثل القتل، الذبح ... أو غير ذلك.

3. سياق الموقف: يدل على العلاقات الزمنية والمكانية التي تجري فيها الكلام⁽²⁵⁾، أو هو على حد تعبير عبد القادر عبد الجليل ((مجموعة الظروف التي تحيط بالحدث الكلامي

ابتداء من المرسل والوسط وحتى المرسل إليه بمواصفاتهم وتفصيلاتهم المتناهية في الصغر⁽²⁶⁾، فمن أجل فهم نص ما يجب معرفة كل القرائن والظروف التي تحيط به، باعتبارها تساعد بشكل كبير في إزالة اللبس والغموض عن النص؛ إذ ما يؤديه السياق للمعنى من تحديد ومناسبة ظرفية يتطلب من الباحث الإلمام بالمعطيات الاجتماعية التي يجري الكلام فيها، ولذلك يمهّد عادة للأثار الأدبية بدراسة للبيئة الزمنية والمكانية، وللملابسات الشخصية لما لها من أهمية في معرفة المعنى المقصود من تلك الأثناء.

4. السياق الثقافي: يقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، وغالبا ما يكون هذا المحيط اجتماعيا⁽²⁷⁾. فللسياق الثقافي أهمية بارزة، إذ يقتضي على القارئ لكي يفهم نصا من النصوص أن يلم بالسياق الثقافي لهذا النص، فالدلالة المعجمية تكون مظلمة له إذا لم يتوسع بالبحث عن المعاني الأخرى والتي يستمدّها من السياق الثقافي.

ومن خلال مقارنة أنواع السياقات المختلفة، يتضح أن المعنى هو ما يفهم من السياق سواء كان لغويا أو عاطفيا، أو ثقافيا وكذلك من خلال سياق الموقف، فكل هذه الأنواع تساعد على تدارك وفهم معاني النص المختلفة.

5- دور السياق في تحقيق التماسك النصي: قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء 88. وإن ما ورد في هذه الآية الكريمة هو تحدي القرآن الكريم للعرب ببلاغتهم وفصاحتهم، ولم يكن هذا التحدي على مستوى اللفظة المفردة، لأنه ليست هناك كلمة جميلة وأخرى قبيحة، وإنما يرد هذا للسياق. وقد عبر عبد القاهر الجرجاني على أهمية السياق في إضفاء الجمال على الكلمة في قوله: "ومما يشهد لذلك أنك ترى كلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأخدع" في بيت الحماسة: (طويل).

تلفتُ نحو الحي حتى وجدتني وجعتُ من الأصغاء ليثًا وأخدعًا.

وبيت البحتري: (طويل):

وإني وإن بلغتني شرفَ الغنى *** واعتقتَ من رق المطامع الخدي.

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

(البسيط):

يا دهرُ من أخدعك، فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

ف نجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة ومن الإيناس والبهجة⁽²⁸⁾. والمثال الذي قدمه عبد القاهر الجرجاني يركز على دور السياق في الحكم على بلاغة كل بيت من الأبيات، على اللغة التي استعملها الشعراء في التعبير عن الدلالة التي يريدون توصيلها إلى السامع، لذلك فاللغة عنده ليست مجموعة من الألفاظ، بل هي مجموعة من العلاقات التي تنشأ فيما بين تلك الألفاظ.

ومن الذين اهتموا أيضا بالسياق ودوره في جمال النص نجد ابن الأثير (ت637هـ) الذي أشار إلى أنك قد تجد لفظتين تدلان على معنى واحد وكلاهما حسن في الاستعمال، ولهما وزن واحد إلا أنه لا يحسن استعمال لفظة في كل موضع تستعمل فيه اللفظة الأخرى. ويمثل ابن الأثير لذلك بلفظتي (الجوف) و(البطن) في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ الأحزاب04، وفي قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ال عمران35. فاستعمل (الجوف) في الأول و(البطن) في الثانية، ولم يستعمل (الجوف) موضع (البطن) ولا (البطن) موضع (الجوف). واللفظتان سواء في الدلالة وهما ثلاثيتان ووزنهما واحد⁽²⁹⁾.

وأوضح السكاكي بأن للصياغة مستويان يختلفان بحسب السياق الذي يردان فيه، الأول هو المستوى اللغوي، والثاني هو مقتضى البيان المتميز بطابعه الجمالي، وفكرة الحال

والمقام في تفكير البلاغيين مرتبطتان بالبعدين الزماني والمكاني للكلام، وذلك أن الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغة على وجه معين، فلما أن يتصل بمكان هذه الصياغة ويسمى المقام الجانب من السياق هو الجانب الاجتماعي الذي يدرسه البلاغيون، فمقام الفخر غير مقام المدح وهما يختلفان عن مقام الدعاء أو الاستعطاف وهكذا⁽³⁰⁾. ومن خلال ما تقدم يتضح أن عناية البلاغيين بالسياق اللفظي تبدو أوضح وأغلب على عملهم من العناية بالجانب المقامي (سياق الحال) وبيان أثره، وتتمثل عنايتهم بالسياق اللفظي في دراسة التركيب أو "النظم" وأثره في تحديد قيمة الكلمة ودلالاتها من خلال السياق الذي وضعت فيه.

ومن القدماء من اهتم بأهمية السياق إلى جانب البلاغيين نجد علماء الأصول الذين ينهون في كثير من المواضع إلى أن الألفاظ المفردة والتراكيب تتعرض بسبب السياقات اللفظية والمقامية المختلفة لألوان من التغير الدلالي، ولذلك ينهون إلى ضرورة الاستعانة بالسياقين اللفظي الحالي، أو ما نسميه نظرية السياق " بالموقف الكلامي " بجميع عناصره، ويتضح ذلك من بحثهم للعام والخاص، حيث لا يراد باللفظ العام دلالاته على العموم، وذلك أن العموم إنما يعتبر بالاستعمال، ووجوه الاستعمال كثيرة ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان⁽³¹⁾.

وقد اعتمد الأصوليون على قرائن السياق المتنوعة، كالقرائن المخصصة للعام وأثرها في تحديد المعنى، وهي قرائن حالية كالحسن والعقل والعرف أي العادة، والقرائن اللفظية التي تشمل السياق اللفظي بمعناه الواسع، ويبلغ الاعتماد على السياق بقرائنه المتنوعة أقصى مدى له عند من يسمون بالواقفية-فئة من الأصوليين- وهم الذين يتوقفون على صيغ العموم وقد بالغوا في أنها لا تدل على العموم ولا على الخصوص، وأن دلالاتها على ذلك تابعة للسياق⁽³²⁾.

وقد عبر ابن القيم عن أهمية السياق في دراسة المعنى في قوله: "السياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل والقطع بعدم الاحتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغلط في مناظرته"⁽³³⁾.

أما المفسرون فقد وضعوا شروطاً للمفسر يتمكن من خلالها تفسير القرآن تفسيراً سليماً وهذه الشروط تمثل في مجملها أركان السياق الحالي ومعرفة أسباب النزول (الأحداث والوقائع الملائمة للنص القرآني)، ولا شك أن استحضارها يعين على فهم معاني الآيات، وهو ما نبه إليه أئمة التفسير، وهذه المعرفة يزول الإشكال في فهم كثير من النصوص القرآنية، ومن خلال هذه الشروط أدرك المفسرون السياق. و من خلال ما قدمناه بخصوص اهتمام علماء العرب بالسياق ودوره في توضيح المعنى، يتبين لنا أنه يرجع لهم الفضل في ظهور الإرهاصات الأولى "لنظرية السياق" التي أتى بها "فيرث"، ومن الأمثلة التي يمكن أن نستشهد بها على السياق اللفظي كلمة (كتاب) التي ترد في سياقات مختلفة ويكون واحد من سياقاتها معنى مختلفاً عن مكانها في السياقات الأخرى على نحو ما هو موضح في الأمثلة الآتية:

1- للرافعي كتاب عنوانه: وحي القلم.

2- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: 02.

3- ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ النساء: 103.

وردت كلمة (كتاب) في الجمل الثلاثة بثلاث معاني يختلف كل واحد منها عن الآخر، ففي الجملة الأولى انصرفت كلمة (كتاب) لتكون دالة على مؤلف، وفي الآية الأولى دلت كلمة (كتاب) على القرآن الكريم، وفي الآية الثانية دلت كلمة (كتاب) على فريضة الصلاة. فيفهم مما سبق أن السياق اللفظي يؤدي إلى أمرين دلاليين أولهما إثبات معنى محدد للحكمة، وثانيهما نفي ضمني لأي معنى آخر تحتمله الكلمة⁽³⁴⁾.

ويرى أولمان أنه لو روعي السياق بدقة واطراد لأمكن التخلص من الكثير من الاقتباسات والترجمات والتفسيرات الكثيرة الخاطئة⁽³⁵⁾. فكثير من النصوص نجد صعوبة في فهمها على الوجه الدقيق بسبب قطعها عن السياق، أو غيبة بعض عناصره، ففي قول الكميت:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب.

ويذكر النحاة أن قوله: ((وذو الشيب يلعب)) يحتمل أن يكون استفهاما إنكاريا بهمزة استفهام محذوفة، ويحتمل أن يكون إخبارا، والمعنى مختلف في الحالتين، وما كان هذا الاحتمال ليرد في اللغة المنطوقة التي تتمثل فيها للسامع عناصر السياق حيث يسمع طريقة الأداء الصوتي ما يصاحبها من المتكلم من حركات أو إشارات أو نحو ذلك فيميز من الأخبار والاستفهام⁽³⁶⁾.

وإن استصحاب سياق الحال ضروري لدراسة النصوص اللغوية المكتوبة التي فقدت عنصرا هاما من عناصر السياق يتمثل في الأداء الصوتي، وعلى قدر ما يمكننا استحضاره من عناصر يكون فهمنا للمعنى من حيث الدقة والوضوح.

خاتمة: من خلال عرض وتحليل ودراسة لقضايا البحث، ومحاولة الكشف عن أهمية السياق ودوره في تحقيق تماسك النص، نتوصل إلى جملة من النتائج، كانت محصلة لما جاء في متن الدراسة، وتتمثل هذه النتائج في العناصر الأساسية التالية:

- 1- أثبتت الدراسة وجود المعنى المركزي بنسب مختلفة ومتنوعة عبر مساحة المتن.
- 2- بينت الدراسة أن هناك أنواعا متعددة من السياق اللغوي مثل: الصوتي، المعجمي، التركيبي ...

- 3- أثبتت الدراسة أن اللفظ لا يدل على معنى واحد، أي أن الألفاظ قد تدل على أكثر من معنى واحد الذي يريده المتكلم وفهمه المخاطب بمعونة القرائن اللغوية السياقية.

4- يعد النص أكبر وحدة لغوية في التحليل النصي، وقد اهتم الدارسون بدراسة النص بعد قصور لسانيات الجملة عن النظر إلى ما يتجاوز الجملة إلى مُتواليات جملية، كما لم نجد تعريفاً جامعاً مانعاً للنص، فكل باحث يُعرفه إما بالنظر إلى جانبه الشكلي، أو من خلال جانبه الدلالي، أو الجانب التداولي.

5- انشغل الباحثون في إطار علم اللغة النصي بدراسة ظاهرة التماسك، وعدوها من أهم محاور هذا العلم، ويتعلق التماسك بنوعين في النص:

- علاقات تتم على مستوى سطح النص الشكلي، وعلاقات تتم في المستوى العميق الدلالي. لتحقيق الاتساق بين جمل النص، والانسجام للأفكار والمعاني الكامنة فيه.

6- يعد السياق أهم العناصر التي تساعد في فهم النص وسبر أغواره، فالنص محكوم بالسياقات والملازمات التي تحيط به إنتاجاً وقرأةً، وقد ساعدت معرفة الخصائص السياقية وأنواع السياق في فهم دلالات ومعاني النص.

7- إن دراسة الربط في البنية النصية مهم لأن تأكيده يثبت صفة النصية ووحدة البناء، وسيكون الطريق مفتوحاً بالنسبة إلى الدارس لكي يحاور نصه، ويؤوله انطلاقاً من معرفته الخلفية ورؤيته للعالم.

8- السياق له دور قوي في فهم معاني الفاظ النصوص وضبط دلالاتها المقصودة، فالكلمة إذا وقعت في سياق ما لا تكتسب قيمتها إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق ولما هو لاحق أو كليهما معاً.

الهوامش :

¹. ابن منظور: (1993م)، لسان العرب، لبنان-بيروت، ط3، ص166-167.

². الزمخشري: (دس)، أساس البلاغة، بيروت-لبنان، ج1، ص484.

³. كريم زكي، حسام الدين: (2001م)، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، القاهرة، ط3، ص215.

⁴. إبراهيم الفقي، صبحي، (2001م)، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، القاهرة، ط1، ج1، ص108.

د. عمر مختاري

- ⁵ . بن مالك، رشيد، (2000م)، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دط، ص 44-45.
- ⁶ . وغليسي، يوسف، (2000م)، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، بحث في المنهج وإشكالية إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر، ص 117-118.
- ⁷ . المرجع نفسه، ص 33.
- ⁸ . لا ينز، جون، (1987م)، اللغة والمعنى والسياق، العراق، ط 1، ص 215.
- ⁹ . حسان، تمام: (1982م)، الأصول، القاهرة، ص 68-69.
- ¹⁰ . السعران، محمود، (2005م)، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، القاهرة، ص 310-311.
- ¹¹ . عياد حنا، سامي و كريم زكي، حسام الدين وجريس، نجيب، معجم اللسانيات الحديثة، ص 28.
- ¹² . كريم زكي، حسام الدين: أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، المرجع السابق، ص 250.
- ¹³ . آيت أو شان، علي، (دس)، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، بيروت، ص 82.
- ¹⁴ . دايك، فان، (1977م)، النص بدايته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، من نظرية الأدب في القرن العشرين، الدار البيضاء، دط، ص 66.
- ¹⁵ . آيت أو شان، علي، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المرجع السابق، ص 83.
- ¹⁶ . فضل، صلاح، (1962م)، بلاغة الخطاب وعلم النص، القاهرة، ط 1، ص 246.
- ¹⁷ . دايك، فان، النص بدايته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، المرجع السابق، ص 72.
- ¹⁸ . آيت أو شان، علي، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المرجع السابق، ص 87.
- ¹⁹ . قدور، أحمد، (1996م)، مبادئ اللسانيات، بيروت-لبنان، ط 1، ص 295.
- ²⁰ . عبد القادر، عبد الجليل، (1973م)، علم اللسانيات الحديثة، القاهرة، ط 1، ص 214.
- ²¹ . المرجع نفسه، 297.
- ²² . المرجع نفسه، 219.
- ²³ . المرجع نفسه، 547.
- ²⁴ . قدور، أحمد، مبادئ اللسانيات، المرجع السابق، ص 297.
- ²⁵ . المرجع نفسه، ص 298.
- ²⁶ . عبد القادر، عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، المرجع السابق، 543.

- ²⁷. المرجع نفسه، ص224.
- ²⁸. الجرجاني، عبد القاهر، (2002م)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، بيروت، دط، ص121.
- ²⁹. ياقوت، مُجَدِّد سليمان، (1995م)، علم الجمال اللغوي (المعاني، البيان، البديع)، مصر، دط، ص304.
- ³⁰. لحماي، فطومة، (2003-2004)، التماسك النصي بين النظرية والتطبيق، سورة الحجر - أنموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، في علوم اللسان، ص48.
- ³¹. حمودة، طاهر سليمان، (1985م)، دراسة المعنى عند الأصوليين، القاهرة، ط2، ص227.
- ³². المرجع نفسه، ص228.
- ³³. المرجع نفسه، ص232.
- ³⁴. إستيتية، سمير، (1987م)، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، القاهرة، دط، ص288.
- ³⁵. أو لمان، ستيفن، (1993م)، دور الكلمة في اللغة العربية، بيروت-لبنان، ط1، ص51.
- ³⁶. حمودة، طاهر سليمان، دراسة المعنى عند الأصوليين، المرجع السابق، ص52.